

## القوة العسكرية ومستقبل الامبراطورية

د. محمد عبد العزيز ربيع

يشير تاريخ قيام وانهيار الامبراطوريات القديمة والحديثة على السواء إلى أن عوامل القوة وأسباب الضعف ، خاصة الداخلية منها ، كانت العامل الحاسم في صعود وهبوط الدول ، وتصاعد ثم تراجع هيبتها ونفوذها على الساحة الدولية. وحيث أن القوة العسكرية والإرادة على إستخدامها هي العامل الحاسم في تحديد السياسة الخارجية للامبراطورية ومدى طموحاتها التوسعية، فإن تراجع القدرات العسكرية على تحقيق الأهداف الاستراتيجية تعتبر العامل الحاسم في تراجع نفوذ وهيبة الامبراطورية. وعلى الرغم من الاهمية القصوى للقوة العسكرية ، إلا أن مسيرة التطور الحضاري في العصور الحديثة أثبتت أن عناصر القوة بالنسبة للدول تشمل أيضا القوة الاقتصادية والمعرفة التكنولوجية والايوضاع السياسية والاجتماعية الداخلية.

وعلى سبيل المثال ، خرجت روسيا من الحرب الباردة وفي حوزتها ترسانة عسكرية ونووية كبيرة للغاية وامكانيات تكنولوجية وعلمية وبشرية عظيمة. إلا أن تفكك المجتمع الروسي ، وانفجار الصراعات الإثنية ، وانهيار الاتحاد السوفييتي ، وضعف الدولة ، وتوقف الاقتصاد الوطني عن النمو سلب الدولة الروسية الجزء الاكبر من قدراتها العسكرية وإرادتها على القتال. وبعد مرور أكثر من 15 سنة على انهيار الاتحاد السوفيتي لا تزال إرادة روسيا وقدراتها القتالية اقل بكثير من امكانياتها العسكرية والتكنولوجية وطموحاتها الامبراطورية.

في عام 1983 ، وفي اعقاب نجاح إسرائيل في احتلال العاصمة اللبنانية في السنة السابقة ، كتبت مقالا تحت عنوان "حدود القوة العسكرية" ، حللت فيه دور القوة العسكرية في صناعة السياسة الخارجية للدول الكبرى والقوى الاقليمية ، ومدى تراجع قدرات تلك القوة على تحقيق أهداف استيراجية على الساحة الدولية. وبعد ذلك أدخلت تلك الفكرة في كتابي The New World Order الذي نشر في عام 1992. ولقد بينت في ذلك الكتاب كيف أن الدولة الامبراطورية لا تتعلم من اخطائها إلا حين تجد نفسها غير قادرة على الفعل بسبب تراجع أوضاعها الداخلية، وظهور قوى عالمية أخرى ذات قدرات عسكرية متنامية وطموحات امبراطورية كبيرة.

كانت أول إشارة حقيقية إلى تراجع قدرة القوة العسكرية على تحقيق أهداف إستراتيجية على الساحة الدولية قد اتضحت تماما حين فشلت أمريكا في فرض سيطرتها على فيتنام بعد حرب عنيقة استخدمت فيها أمريكا كل ما كان لديها من عتاد عسكري وإرادة على القتل والدمار، وذلك فيما عدا القوة النووية. وعلى الرغم من هزيمة أمريكا في فيتنام في السبعينات، وتبلور مدى تراجع فاعلية القوة العسكرية على الساحة الدولية، إلا أن الاتحاد السوفييتي، والذي كان يمثل القوة العظمى الأخرى في ذلك الوقت، لم يتعظ مما حدث لأمريكا وقام بالتالي بتكرار تلك التجربة وبتنتاج على نفس الدرجة من السوء في الثمانينات في أفغانستان. إن القوة العسكرية المنظمة ليس باستطاعتها في كل الحالات تقريبا حسم صراع دموي مع قوة غير منظمة تتبع أسلوب حرب العصابات، وهذا ما واجهه الأمريكيون في فيتنام وواجهه السوفييت في أفغانستان. إذ رغم ضعف الإمكانيات العسكرية لمقاتلي العصابات إلا أنهم يملكون عادة الكثير من الإرادة والاصرار على النصر.

وفي عام 1982 قامت إسرائيل بغزو لبنان، وذلك على أمل النجاح في تصفية منظمة التحرير الفلسطينية وفرض حل على العرب تصفي من خلاله حساباتها معهم. لكن نجاح القوات الإسرائيلية في إجبار مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية وقيادتها السياسية على الخروج من لبنان، لم يكن كافيا لفرض حل إسرائيلي-أمريكي على الدولة اللبنانية. وبينما نجحت إسرائيل في التخلص من منظمة التحرير الفلسطينية كقوة عسكرية وتحولها إلى منظمة سياسية منفية في دولة عربية إفريقية، تسببت إسرائيل، ومن حيث لا تدري، في خلق منظمة عسكرية أقوى وأخطر من منظمة التحرير بكثير، وهي حزب الله الذي حمل لواء المقاومة ضد الاحتلال الصهيوني واجبر إسرائيل على الانسحاب دون تحقيق أي من أهدافها الإستراتيجية.

كان على أمريكا أن تنتظر حوالي ثلاثين سنة كي تنسى التجربة الفيتنامية، وذلك قبل أن تجرب حظها ثانية في العراق وتستخدم قوتها العسكرية لتحقيق أهداف إستراتيجية تشمل إقامة نظام حكم عراقي عميل لها وترسيخ أقدامها في منطقة الشرق الأوسط الغنية بالبترو. ومما شجع أمريكا على اتخاذ تلك الخطوة تفردتها في الهيمنة على العالم بعد انهيار الاتحاد السوفييتي من ناحية، وتولي مجموعة يمينية متعصبة وحاقدة مقاليد الحكم في واشنطن ناحية ثانية، وتصاعد اعتماد أمريكا على البترول في وقت تزايدت فيه احتياجات الدول المنافسة، خاصة الصين. وحين قامت أمريكا باختلاق المبررات لغزو العراق واسقاط النظام الحاكم فيه واحتلال أراضيه لم تكن النتيجة أفضل مما كانت عليه قبل ثلاثين سنة في فيتنام.

وبعد مرور حوالي ربع قرن على قيام إسرائيل بغزو لبنان ، حاولت الدولة اليهودية تكرار التجربة السابقة ، وذلك على أمل التخلص من حزب الله الذي ألحق بها الهزيمة في الماضي. وبالرغم من قيام إسرائيل باستخدام أقصى درجات القوة وارتكاب ابشع العمليات الاجرامية بحق الشعب اللبناني ، إلا أنها فشلت في تحقيق أهدافها والقضاء على المقاومة اللبنانية. وحين جاء الدعم الأمريكي ، واصلت وزيرة الخارجية الأمريكية أنها ترى بوادر شرق أوسط جديد ، كانت تتصور أن الشعب اللبناني سيثور على حزب الله ، وأن الإفراط في استخدام القوة العسكرية سيؤدي إلى القضاء على ثقافة المقاومة في البلاد العربية عامة. لكن حزب الله خرج من الحرب وقد حقق أعلى درجات المصداقية على الساحة العربية ، مما أعطى مقاتلي حماس في فلسطين أملا أكبر بالنصر وإصرارا أقوى على مواصلة المقاومة والنضال.

إن تبلور حدود القوة العسكرية للدول التي تعتمد تلك القوة أساسا لسياساتها الخارجية أدى في كل الحالات والاحيان إلى تراجع نفوذ ومصداقية تلك الدولة على الساحة الدولية ، ولقد تبع ذلك إتجاهها نحو التفوق وتبني سياسة دفاعية فتحت المجال لظهور قوى دولية وإقليمية أخرى منافسة ذات قدرات وإرادات على تحدي القوة العظمى والحد من أطماعها التوسعية.

professorrabie@yahoo.com

د. محمد عبد العزيز ربيع

[www.yazour.com](http://www.yazour.com)